المقال السادس

الطب الإغريق

لقد سبق أن تناولنا طب قدماء المصريين وتطوره، منذ بدايته فى جو بخور السحر ووصفات العلاج الطبيعى، إلى قمة ذروته التى تجسمت فى (قرطاسة إدورين سميث)، وأشرنا إلى أن أحكامنا عليه ابتدائية، سوف يستأنفها التاريخ لقلة معلوماتنا عنه، ونوهنا إلى احتمال، بل إلى تأكيد وجود تعليم سرى، لم يكن ليسجل على البردى، ولا ليلقن إلا فى أذن المطلعين... ولكنه أرسخ (لأبقراط) وأسلافه أسساً متينة شيدوا عليها بناءهم الخالد.

وإذا قبلنا جدلا أن الذهن المصرى - إذا لم ينتب البلاد ما أصابها على يد الفرس وغيرهم من الغزاة الغاشمين - كان سوف يقدر له استمرار التطور، والوصول إلى ما امتاز به العقل الأغريق من الحرية وحب المنطق، فإنه يجب علينا أن نعترف بأن اتجاهات الحضارتين - المصرية والإغريقية - الذهنى والمادى والروحانى اختلفت فى الواقع اختلافاً جوهرياً، بصفة خاصة فى آخر عهد الفراعنة عندما رزحت مصر تحت سلطان أباطرة الفرس، حين ظل المصرى المثقف يحن إلى الماضى المجيد، على حين أفاق الإغريق المغامر إلى الآفاق المجهولة.

أما الطب فما هو إلا جزء من تاريخ شعب وفلسفته، ويمكن القول بأن لكل شعب من الطب ما يستحقه، لأنه ثمرة من ثمار فكره وتجاربه، تتفاعل فيه وجهتان، الوجهة التجريبية الحسية، والوجهة الاستقرائية التفسيرية، فإذا كانت النظريات تبنى على الملاحظات، فإن الذهن يختار - دون قصد - من تلك الملاحظات ما يناسب اتجاهاته الخفية ويلائم نظرته إلى الكون والطبيعة.

ولقد تميز الفكر الأغريق بحريته وانطلاقه، لم يخضع لسلطان الكهنة والتفكير اللاهوق

كما فعل فى مصر وفى غيرها من البلاد، بل إن الإغريق كادوا يعدون الدين ميداناً قاصراً على الشعر والقصص والفن المسرحى، وأكثر من هذا فإنهم حين تأثروا بأساطير غيرهم من الشعوب، أنزلوا آلهتها من سمائها وجعلوها كالبشر.. ومنحوها أحاسيس الآدميين وعواطفهم، وأضافوا إلى سلوكها مظاهر ضعفهم من رذائل وعيوب. ومن هنا استطاعوا أن يتغلبوا على مخاوف الإنسان البدائى وأن يتقبلوا كل المذاهب وأن يعترفوا بجميع الآلهة، ولذا فإن، عندما أصبحت أثينا مركز الإشعاع الفكرى فى العالم فى عهد (سقراط، وبركليس، وأبقراط)، تلاقت لديها كل مستحدثات العالم القديم، وتقابلت عندها كل المذاهب التى أخضعها فلاسفتها للتحليل النقدى يقيناً منهم أن كل رأى جدير بالبحث والتمحيص والنقاش. وقد أدت هذه الحرية الفكرية إلى نتيجتين:

أولاهما، أن أثينا عرفت عهداً تميز بازدهار العلوم والفلسفة، الأمر الذى جعل منها ومن وريثاتها مدارس العلم حتى عهد العرب.

والنتيجة الثانية، هى أن هذه الحرية الفكرية ولدت انقسامات داخلية لا حصر لها.. انقسامات أدت إلى الضعف والتفكك، ثم إلى الانهيار - فى النهاية - أمام عدوان المقدونيين والرومان وغيرهم.

كريت :

كان جزيرة كريت مهد أول حضارة للشعوب الإغريقية. أما عن نشأة الطب فيها، فإننا لا نعرف عنها شيئاً عدا ما جاء ذكره فى شعر (هوميروس)، هذا مع أن حفريات قصر كنوسوس فى جزيرة كريت، الذى اندثر فى القرن الرابع عشر ق. م.، أى قبل (هوميروس) بثلاثة قرون.. مع أن هذه الحفريات كشفت عن معرفة تامة بقوانين الصحة وبوسائل التخلص من الفضلات والمياه المنزلية، وليس هذا بغريب بالنسبة إلى شعب كريت إذ إن لفائف البردى المصرية التى ترجع إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد تذكر على هامش بعض الوصفات أنها وصلت إلى مصر عن طريق الشعب «القفتى»، والمقصود به سكان كريت.

وحين هدمت كنوسوس وانطفأت شعلة كريت - انتقلت الحضارة الإغريقية الأولى

إلى جنوب بلاد اليونان فى البيلوبونيس، حيث دارت الأحداث التى رواها (هوميروس) فى (الإلياذة والأودسة).

الطب فى أشعار هوميروس :

كان (هوميرس)[٩٣] شاعراً متجولا، يروى لمن يلتف حوله من المستمعين الأساطير التى نشأت حول (حصار طروادة)، ومغامرات (أوليسيز)، مما دون بعد فى (الألياذة والأودسة). ويقال إنه كان يقرن إنشاده بالعزف على الربابة كما يفعل اليوم رواة قصص عنتر وأبى زيد. وقد ذهب النقاد - بادئ الأمر - إلى أن منظومات (هوميروس) إن هى الا وليدة خيال خصب لا يرتكز على الحقائق التاريخية. وظل هذا الرأى سائداً إلى أن انتهى علماء الآثار بالتحقق من صحة الروايات التى احتوتها هاتان الملحمتان ووفقوا فى اكتشاف (طراودة) وغيرها من المدن الأثرية البائدة، بل اهتدوا إلى أماكنها بفضل ما ورد فى شعر (هوميرس)

وقد جاء فى شعره وصف لمائة وأربعين جريحاً توفى منهم ٧٧,٦ فى المائة وكانت نسبة الوفيات من جراء الجروح بالسيوف والرماح أعلى منها فيمن أودت بهم السهام، وذكر كذلك الطريقة التى كانت تعالج بها الجروح، أى بنزع السلاح أو الجسم الغريب من الجرح وإيقاف النزيف، ثم بوضع الكمادات، والمساحيق المستخلصة من الجذور، والأربطة.

ويستمد من شعر (هوميروس) ومن الأدب الإغريق القديم أن أطباء هذا العهد عرفوا المخ والنخاع ووصفوا نسيجاً أطلقوا عليه لفظة (نفرون)، وهى تترجم اليوم بالعصب. غير أنهم ضموا تحت لواء هذه التسمية أوتاراً وأليافاً مختلفة، شأنهم فى هذا شأن قدامى المصريين بلفظة (ميتو) وشأن الكثير من الشعوب فى لغتها غير العلمية.

ويبدو أنهم - لمشاهدتهم ما يصاحب الأنفعالات النفسية من خفقان واضطراب فى التنفس وانقباض فى ناحية المعدة - وضعوا مركز الحياة فى الحجاب الحاجز فى رأى البعض، أو فى القلب، أو فى الكبد، فى رأى البعض الآخر، وقد ظلت فئة من العلماء والفلاسفة تعتقد - قروناً بعدهم - أن مركز الذهن والإحساس هو القلب، ومن هؤلاء (أنبادقليس، وأرسطو، وزينو).

كما أنهم أسندوا إلى النفس - بمعنى الهواء المستنشق - أهمية قصوى، وقالوا إنه يحمل للجسم الطاقة والقوة، ويشيع فيه الحيوية، وينقل الأحاسيس، وبالاختصار إنه مركز الروح، إذ إن الروح تغادر الجسم عند الوفاة مع آخر نفس.

ومع ذلك فإن معلوماتهم التشريحية - مع ضآلتها - تبدو فى هذه القصص على جانب لا بأس به من الصحة، لا سيما تلك التى تخص العظام والعضلات والمفاصل، ويظهر طبهم بمظهر تجريبى عملى لا تشوبه الشعوذة ولا تتدخل فى شئونه الآلهة، أى أن الأطباء كانوا من المحترفين غير اللاهوتيين، وكان هؤلاء يتمتعون بمكانة رفيعة فى المجتمع إذ إن (هوميروس) قال عنهم إن قيمة الواحد منهم تفوق عدد كبير من الرجال. ومن الطريف أن (أسقلابيوس) - وهو الذى رفع فيما بعد إلى مصاف الآلهة واعتبر (ابن أبولو) - كان فى شعر (هوميروس) ما يزال يوصف بأنه رجل عادى تلقن الطب على (القنطور شيرون) الذى كان نصفه الأمامى إنساناً والنصف الآخر حصاناً تبعاً لأساطير الإغريق، دون ذكر شيء عن ألوهيته، أو عن الطقوس التى ارتبطت باسمه فيما بعد.

ولم تشب الطب شعوذة الجن والعفاريت والآلهة إلا فى المؤلفات التى ظهرت بعد (هوميروس)، عندما اختلط الإغريق بالآسيويين وتأثروا بأديانهم، وهذه الحقبة هى التى سيطر فيها كهنة (أسقلابيوس) على الطب ووسائل العلاج.

أسقلابيوس :

اتفق المؤرخون على أن صورة (أسقلابيوس) النهائية (شكل ٦-١) جاءت نتيجة تطور تدريجى نجم عن تطور وامتزاج شخصيات آلهة مختلفة، ولا سيما الآلهة التى كانت تهيمن على المناطق الجوفية، وليس من شك مثلا فى أن التقاليد التى كانت ترجع إلى الأزمنة الغابرة، والتى كانت تتصل بالعلاج وترتبط بعبادة الثعبان - وهو رمز القوى الجوفية وآلهتها - ليس من شك فى أن هذه التقاليد سلكت طريق التطور نفسه. هذا الثعبان نراه يلعب دوراً هاماً فى ميدان الطب السحرى القديم، ويظهر بين أهم مميزات إله الشفاء عند البابليين، ويلتف حول (عصا أسمون) الإله السامى فى سوريا وفلسطين وفينيقيا، وتقام له تماثيل من الحجر والبرونز فى كنعان وتل جزر والأردن وفلسطين، ويجيء ذكره فى التوراة فى رواية الثعبان البرونزى. ولما كانت أول صورة معروفة

(شكل ٦-١) اسقلابيوس إله الطب عند الإغريق

(لأسقلابيوس) تمثله فى شكل ثعبان، وأن القرابين المخصصة له كانت تقدم إلى هذا الحيوان، فيمكن التكهن بأن الطقوس الخاصة به كانت فى أول الأمر تتعلق بعبادة أحد الآلهة الجهنمية.

ولد (اسقلابيوس) - حسب الرواية التسالية - فى بلدة تريكا من أعمال تساليا من إسكيس ابن الملك إيلاتوس وكوردتيس ابنة فليجياس. ويروى (هوميروس) أنه كان بشراً قد مارس مهنة الطب خلال حرب (طروادة)، أى فى القرن العاشر ق. م، وأنه عرف عن (شيرون) سر الأعشاب المستخدمة فى العلاج وأن الإله (زوس) قتله لإرضاء (بلوتو) إله الجحيم والموتى، الذى حنق عليه لإبرائه كثيرين من المرضى ولإعادة بعض الموتى إلى الحياة.

على أن قصة (أسقلابيوس) قد تطورت ونمت وترعرعت بعد وفاته على مر الزمن، إذ روى الشاعر (فنداروس) (فى القرن الثانى الميلادى) أنه (أسقلابيوس) رفع بعد وفاته إلى جبل أوليمبوس مقر الآلهة، وأنه عاد بعد ذلك إلى الأرض بطلا بين الآدميين فأقام سلالة الأطباء بتأسيسه أسرة (الأسقلبياد) التى انتمى إليها (أبقراط وجالينوس)، وقد لقبه أدباء الإغريق بالطبيب الشافى المنجد iatros orthos، كما أن الفنانين خلدوا ذكراه بما أقاموا له من أبدع التماثيل : وهو يظهر عادة مصطحباً ثعباناً أو كلباً أو ماعزاً أو حمامة أو ممسكاً بكتاب أو بعصا أو بإناء للأدوية أو بأومفالن omphalon، وهو صورة حجرية لسرة الإنسان. وقد يظهر كذلك وفى رفقته شاب اسمه (تلسفوروس) عزيت إليه فيما بعد قوى علاجية.

وقد نشأت عبادته فى تساليا، وسرعان ما انتشرت وتركزت فى البلوبونيز بجنوب اليونان، ولا سيما فى بلدة تيتانوس حيث كانت تعيش الثعابين التسالية، وحيث بنى إسكندر، بن مكاون Machaon أو ابن (أسقلابيوس)، أول معبد له. وكان يروى عنه هناك أنه ابن الإله (أبولو) والإلهة (أرسينوى). وفى المنطقة نفسها على شاطئ البلوبونيز الجنوبى شيد معبد (أبيدورس) الذى ظل مركز عبادته إلى أن انتشرت هذه العبادة فعمت بقية حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد دخلت أثينا سنة ٤٢٩ ق. م. وكان الكهنة يرسلون عدداً من الثعابين المقدسة إلى كل معبد جديد يقام لهذا الإله. وفى سنة ٢٣٩

ق.م. انتشر وباء الطاعون فى روما، فأوفدت هذه المدينة إلى معبد (أبيدورس) رسلا يطالبون بثعبان مقدس، وبينما كان وفد روما يستقبل بحفاوة فى المعبد ظهر أحد الثعابين واتجه نحو الميناء وأوى إلى سفينتهم وتسلل إلى مقصورة رئيسهم أوجولينوس، فعد الرومان ذلك فألا حسناً، وعند عودة السفينة إلى روما عندما دخلت نهر التيبر، عام الثعبان فى اتجاه إحدى جزره فأقيم معبد (لأسقلابيوس) فيها، فانتهى الوباء، وصار (أسقلابيوس) عند الرومان منذ ذلك الوقت إله الصحة.

وفى عهد المسيحية أطلق على هذه الجزيرة اسم القديس (بارتولوميوس St. Bartholomeus، وأطلق الأسم نفسه على مستشفى فى لندن ما يزال يحتفظ بشهرته حتى الآن.

ولم يكن محل إقامة تلك المعابد ليختار جزافًا ، وإنما كانت هناك اعتبارات تراعى فى هذا الاختيار ، فكانت تبنى فى أماكن تتميز بجمال الطبيعة، واعتدال المناخ، وكان يراعى قرب وجود مياه معدنية ذوات فوائد علاجية. وكثيراً ما كانت تبنى على شاطئ البحر مثل (أبيدوروس) إلا أن هذه المعابد كانت جميعها آيات رائعات من الفن المعمارى، وكانت تزين بأجمل التحف لأشهر الفنانين، مثل تمثال (أسقلابيوس) المصنوع من العاج والذهب الذى كان يفتخر به معبد (أبيدوروس). وما كانت تقام هذه المعابد حتى سرعان ما تنشأ حولها المسارح، والأندية الرياضية، وميادين السباق، لتكمل علاج المرضى بالترفيه عنهم، مثل ما نراه الآن فى مرافق فيشى وكارلزباد وغيرهما من المناجع العلاجية.

وكان لمسرح (أبيدوروس) الموجود إلى الآن شهرة خاصة : فقد أعد لاستقبال عشرة الآف متفرج، وكانت خواصه الصوتية من العجائب التى وفقت إلى خلقها

عبقرية الإنشاء :

على أنه لم يكن يكفى للشخص أن يكون مريضاً ليباح له دخول المعبد، وإنما كان يخضع لبرنامج معين يتحتم عليه تنفيذه بدقة متناهية، وصبر قد يطول فى أثناء فترة تمهيدية. فقد كان يحظر على المريض تعاطى أى نوع من الخمور، وأكل بعض اللحوم، وكان يفرض عليه تناول الشرب لتطهر أمعاؤه، وهذا فضلا عن الفصد وشتى أنواع

التنظيف والتطهير. فإن اجتاز المريض هذه الخطوات من برنامج العلاج التمهيدى بأمانة، بدأت مرحلة أخرى تفرض عليه خلالها سلسلة طويلة من الحمامات.. وبعد هذا كله كان عليه أن يشترك فى حفلات دينية معينة تردد فيها ترتيلات مليئة بوسائل الإيحاء وبروايات تذكر قصص شفاء من سبق من المرضى.. فإن انتهت هذه المراحل، ورأى الكهنة أن المريض قد أصبح مهيئاً تهيئة كافية، وأنه صار كفئاً وخليقاً بأن يشاهد الإله، سمحوا له بدخول كهف المعبد Abaton ليمضى ليلة تحت قدمى تمثال (أسقلابيوس) آملا فى أن يحظى برؤيته فى منامه... وكانت الرؤيا تتحقق على شكل حلم شاف.

وتفيد الكتابات المخطوطة على القرابين، والمؤلفات المعاصرة، أن الكهنة - فى بداية عهد هذه المعابد - كانوا يتدخلون فى العلاج ولو بطريقة خفية: فقد كانوا يتسللون إلى الكهف ليلا مقنعين متخفين فى شكل الإله، وحاملين الدهانات والمراهم والعقاقير المختلفة التى يستخدمونها فى شتى أنواع العلاج... إلا أنهم أخذوا بعد ذلك يقتصرون على وسائل الإيحاء فى أثناء النوم، وتفسير الأحلام تفسيرًا يرمى إلى بث الأمل فى نفس المريض، وإلى حضه على بذل العطاء للمعبد. ولقد صار تقليدًا فى ذلك الوقت أن يقذف المريض - الذى منح الشفاء - بقطع من النقود فى النبع المقدس، وأن يقدم قربانًا له من الذهب أو الفضة على شكل العضو الذى شفى فى جسمه، وهذه القرابين الرمزية وجدت آلاف منها فى معابد (كورينتوس، وأبيدورس) وغيرهما، الأمر الذى أمكن الاستدلال منه على أنواع الأمراض التى كانت متفشية فى ذلك الوقت وهذا التقليد ماتزال بقاياه قائمة حتى الآن: فإننا نجد جدران الكنائس مغطاة بالنماذج الفضية المقدمة إلى القديس الشاف. كما أن عادة رمى النقود قد خلدت أو بعثت فى نافورة بروما وفى أغنية إيطالية Three coins in a fountain ورواية سينمائية اشتهرتا أخيرًا.

ومع أن هذه العمليات المعقدة كانت تعتمد - ضمن ماتعتمد عليه - على قسط ضئيل من العلاج الطبى الصحيح، فإن جوهر علاج المعابد كان إحداث الحلم أو النوم الشاف اللذين يكفلان شفاء المريض. وذلك أمر يدل على أن الكهنة قد فطنوا إلى حقيقة هامة، هى قابلية النفس للايحاء فى أثناء النوم. [illegible] الحقيقة التى يستغلها [illegible] النفس فى بعض وسائلهم العلاجية اليوم.

وبالاضافة إلى القرابين التى كان البارئون من المرض يقدمونها إلى الآلهة رمزًا لتسبيحهم بحمدها، . . فقد كشف عن عدد من نصب الحجر سجلت عليها روايات عن شفاء مرضى عديدين. . . والمرجح أنها كانت توضع على مرأى من الزائرين للتشجيع (والتخويف فى آن واحد)، فإن إحدى هذه الروايات مثلا تقص أن «هرمو كان قد شفى من العمى، ولكن الإله رد إليه المرض عقابًا له على رفضه دفع أتعاب المعبد». وفى رواية أخرى تهدف من غير شك إلى التهكم على معبد منافس «أن أريستاغورس ذهبت إلى معبد ترويكسنس للتخلص من دودة فى أمعائها، ولكن الإله كان متغيبًا فعمد أولاده - فى علاجهم للمريضة - إلى قطع رأسها هى، ولم يستطيعوا بعد ذلك إعادته إلى مكانه. . وفى الصباح عندما وجد الكهنة هذه الحال دعوا الإله (اسقلابيوس) ذاته إلى المجىء. . فحضر من (أبيدورس) إلى ترويكسنس فى أثناء الليل. . وإذا بالمريضة ترى فى منامها أنه وصل رأسها وفتح بطنها فاستأصل الدودة منها، ثم أغلقها. . .

على أن شعوذة الكهنة لم تصادف قبولا عامًا، فالواقع أنها كانت موضوعًا للنقد المر، لا سيما عند الأثينيين الذين شهروا بروحهم التهكمية اللاذعة، وبنزعتهم الأصلية فى التحليل والنقد. . وهؤلاء الأثينيون كانوا يسخرون من الكهنة علنًا، ويصفقون فى إعجاب وتحمس للكتاب الهزليين أمثال (أريستوفانس) الذى فضحهم، وندد بألاعيبهم، وصيرهم أضحوكة بين الناس، وهذا فى «بلوتوس» التى مثلت على المسرح سنة ٣٨٨ ق.م. . . ومع ذلك فقد ظلت عبادة (أسقلابيوس) قائمة بعد عهدها الذهبى الذى قارن القرن الخامس ق.م. حتى القرن الخامس الميلادى، حيث امتزجت بطقوس مسيحية مثل تكريم القديسين بشكل يدعو إلى الغرابة والتأمل.

الطب العلمى قبل أبقراط:

وفى هذا الجو، لم ينظر الطب إلى الصحة العامة والمرض والعلاج عامة على أنها موضوعات تخضع دراستها للبحث التجريبى والتفكير المنطق إلا عندما حاول الإغريق - أول مرة فى التاريخ - تفسير الكون، والاستدلال على قوانينه، بالتفكير المجرد والمنطق المقنن، مبتدعين لهذا أساليب المنطق أداة لهذا التفسير. ولقد نهجوا هذا المنهج لأيمانهم بقابلية الكون للتفسير العقلى، وسببية الأحداث الطبيعية. . فنظروا إلى تأملات الفلاسفة

وإلى ملاحظة الظواهر الطبيعية على أنها موضوع لدراسة واحدة متكاملة، ولهذا فإن ما نسميه اليوم بالعلوم الطبيعية إن هو إلا آخر مرحلة من مراحل تطور تناول إجراء الاستقراءات الكونية، المبنية على العقيدة بأن المادة تخضع لقوانين طبيعية أزلية، يمكن استنباطها من المميزات الهندسية والميكانيكية لأركان المادة أو ذراتها.

وإذا استثنينا قدماء المصريين لقلة ما وصلنا عنهم، وللسرية التى كانوا يحيطون بها علومهم، فإن المتقدمين الذين سبقوا الإغريق كانوا يهدفون من تصنيف ملاحظاتهم عن الكون وكشوفهم فى الرياضة إلى تطبيقها على مقتضيات حياتهم اليومية تطبيقًا عمليًا مباشرًا. ولم يدر فى خلدهم أن يتدرجوا فى هذا السبيل، بأن يرقوا إلى درجة يبحثون فيها عن العلل الأولى، ويبوبون هذه العلل تبوبًا منطقيًا يجعل من الكون وحدة متماسكة متناسقة. فكان هؤلاء القدامى يبحثون عن قواعد تطبيقية فى الحياة فى حين كان الإغريق يسبرون غور الكون ويحاولون أن ينفذوا إلى أسراره.

وهناك ظاهرة أخرى اتسم بها هذا الشعب الإغريق الخليق بالإعجاب، وهى أن التعليم الذى كان فى بداية عهده سريًا، شأنه فى ذلك شأنه فى سائر الحضارات التى عاصرته.. سرعان ما حطم قيوده، وتخطى الحدود التى كانت موضوعة له... وإذا (بالطائفة) تتحول إلى «مدرسة»... وإذا بالمطلعين والمريدين يتحولون إلى طلبة. وبفلاسفة أثينا يتجادلون أو «يتفلسفون» فى كل المناسبات كالحفلات والولائم.. حتى أننا نرى أفلاطون يطلق اسم «المأدبة» على أهم إنتاج فلسفى له... وفئة من الفلاسفة تسمى بالمشائين peripaterticians (١٣٧) نسبة للطريق peripato التى كانت تحيط (البارثنون) فى قلب أثينا، والتى كانوا يتمشون فيها وهم مسترسلون فى جدلهم.

إلا أن هذه النزعة التعقلية المجردة لم تكن وليدة أثينا نفسها، وإنما جاءت ثمرة جهود فلاسفة مستعمرات الإغريق فى جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئه. وإذا كنا سنشير إلى هؤلاء الفلاسفة وإلى فلسفاتهم فلأن نظرياتهم أثرت، ليس فى الجزء النظرى البحت من الطب فحسب، وإنما فى جميع نواحيه وبخاصة فيما يتعلق منها بالعلاج... ذلك لأن الفلسفة كانت - كما قلنا - جزءًا لا يتجزأ من العلم التجريبى وأنه لم تحدث أية محاولة لفصلها عنه.

وقد عزا (هكسلى Huxley) النشاط الذهنى الذى ساد العالم فى ذلك الوقت إلى خميرة عقلية عم فعلها فى المنطقة الواقعة بين بحر أيجة وشمال الهندوستان... وقد أيد هذا الزعم جوناثان رايت Jonathan Wright، بملاحظته أن (زرادشت) فى إيران، و(كونفوشيوس) فى الصين، و (بوذا) فى الهند، و (طاليس) فى أيونيا، و (فيثاغورس) فى صقلية، نشطوا جميعًا فى وقت واحد على وجه التقريب، وفى مناطق تقع على خط عرض واحد هو خط ٣٥ شمالا وهو الذى يمر بآسيا الصغرى وجنوب إيطاليا وصقلية.

المدارس الفلسفية:

وقد شاهد هذا العصر نشأة المدارس الفلسفية، وأولها هى مدرسة (طاليس) فى ملطية (سنة ٦٣٩-٥٤٤ ق.م.) و (طاليس) وهو الرياضى الذى تمكن من قياس ارتفاع الهرم، بتطبيق قانون المثلثات المتشابهة على قياسين هما قياس ظل الهرم وقياس ظل عصا ثبتها عموديًا. وآراء (طاليس) العلمية لا تهمنا بقدر ماتعنينا الأساليب العقلية التى توصل بها إلى استنتاجاته.

وقد كان المفكرون فى ذلك الوقت يبحثون عن علة هذا الكون، محاولين تفسير جوهره بأنه عنصر أولى واحد تكونت منه الكائنات، ولعل أعمق مفكرى هذه الحقبة التى غرست فى أثناءها بذور فكر الإنسان الحالى هما: (فيثاغورس، وأنبادقليس)، للطابع الدائم الذى تركاه فى الفكر البشرى، وقد نسجت حولهما الأقاصيص ووضعهما مؤرخو العرب فى مصاف أكبر الحكماء، بل كادوا يحلوهما محل الأنبياء، فإننا نجد ابن أبى أصيبعة يقول: «قال القاضى الصاعد أن (بندفليس) كان فى زمن (داود) النبى عليه السلام على ماذكره العلماء بتواريخ الأمم، وكان أخذ الحكمة من (لقمان الحكيم) بالشام.. وأن (فيثاغورس) أخذ الحكمة عن (سليمان بن داود) عليهما السلام، وكان قد أخذ الهندسة قبلهم من المصريين، وله فى نضد العالم وترتيبه على خواص العدد ومراتبه رموز عجيبة وأغراض بعيدة» وبصدد زيارته لمصر قال: «واشتاق (فيثاغورس) إلى الاجتماع بالكهنة الذين بمصر فابتهل إلى (فولوقراطيس) أن يكون له على ذلك معينًا فكتب له إلى أماسيس ملك مصر كتابًا يخبره بما تاق إليه (فيثاغورس) ويعلمه أنه صديق من أصدقائه، ويسأله أن يجود عليه بالذى طلب وأن يتحسن عليه. فأحسن أماسيس قبوله

وكتب إلى رؤساء الكهنة بما أراد، فورد على أهل مدينة الشمس وهى المعروفة بزماننا بعين شمس بكتب ملكهم، فقبلوه قبولا كريمًا وأخذوا فى امتحانه زمانًا فلم يجدوا عليه نقصًا ولا تقصيرًا فوجهوا به إلى كهنة منف، كى يبالغوا فى امتحانه فقبلوه قبولا على كراهية، واستقصوا امتحانه فلم يجدوا عليه معيبًا ولا أصابوا له عثرة، فبعثوا به إلى أهل ديوسبولس يمتحنوه فلم يجدوا عليه طريقًا، ولا إلى ادحاضه سبيلا لعناية ملكهم ففرضوا عليه فرائض صعبة مخالفة لفرائض اليونانيين كيما يمتنع عن قبولها فيدحضوه ويحرموه طلبه، فقبل ذلك وقام به فاشتد إعجابهم منه وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره أماسيس فأعطاه سلطانًا على الضحايا للرب تعالى وعلى سائر قرابينهم ولم يعط ذلك لغريب قط. . ».

و (فيثاغورس)، صاحب نظرية مربع وتر الزاوية القائمة، كان أيونى الأصل، عاش فى كروتون بجنوب إيطاليا (من ٥٨٠ - إلى ٥٠٠). وقد تخيل الكون خاضعًا لقوانين الأرقام. وكان تلاميذه يقدسون بعضها مثل رقم أربعة الذى كانوا يسمونه « الرقم الكامل » لخواصه العجيبة. . ومع أن مدرسة (فيثاغورس) انحلت بعد موته لأسباب سياسية، فإنها ظلت بعد ذلك قرنين على شكل طائفة فلسفية ودينية، وأثرت على الفكر الفلسفى بعدها، إلى حد أننا نجد (أبقراط) ذاته يحدد أيامًا حاسمة بالنسبة للأمراض لمقابلتها بعض الأرقام التى نسبت لها خواص مزعومة.

ولعل تفكير (فيثاغورس) المبنى على خواص الأرقام والنسب العددية وعلم الألحان هو أساس نظريات (أنبا دقليس) وتلاميذه. فبينما كان أمثال (طاليس، وأيراقليطوس، وأناكسمين) يعتقدون أن أصل هذا الكون جوهر واحد هو فى النظريات المختلفة الأرض أو الهواء أو النار أو الماء. كانت نواة تعليم (أنبادقليس) فى صقلية أن الكون مبنى من أركان أربعة، كل ركن غير قابل للقسمة، وأن جميع الأجسام نشأت عن امتزاج أو تجمع تلك العناصر الأولى بأشكال مختلفة، وبنسب متفاوتة، وأن هذا الامتزاج أو التجمع يخضع لقانون الجاذبية والنفور. وهاتان النظريتان، نظرية العناصر الأولى التى لا يمكن تقسيمها ونظرية التجاذب أو النفور فيها أصول الكيمياء الحديثة، كما نجد أن تحديد عدد الأركان بأربعة يعتمد على قداسة هذا الرقم عند (الفيثاغوريين). وهو كذلك أساس تقسيم الأخلاط إلى أربعة، ذلك التقسيم الذى ساد الفكر الطبى حتى العهد الحديث.

وقد روى عن (أبادقليس) أيضًا أنه كافح الحميات التى كانت منتشرة فى مدينة سلينتم Selinentum بتجفيف المستنقعات المحيطة بها، وقضى على الأوبئة فى أجريجنتم Agrigentum مسقط رأسه بتبخير عام.

وفى الزمن ذاته عاش فى مدينة كروتون (القمايون Alcmaeon) الذى سمى بأبى الطب قبل (الأبقراطى)... وكان مذهبه أن الصحة إن هى إلا حالة الانسجام التام بين عناصر الجسم المختلفة، وأن المرض يحدث عندما يتسلط عنصر على العناصر الأخرى، وأن الشفاء هو الانتقال مرة أخرى من حالة الاضطراب إلى حالة الانسجام. (وهذه النظرية هى التى تبناها بعد ذلك (أبقراط) واعتمد عليها فى وضع نظرية الأخلاط).

وقد فطن (القمايون) إلى تأثير المناخ والتغذية والبيئة والأمزجة، وإلى صلتها بالأمراض، وقد أشار تلاميذه فى كتاباتهم إلى الأخلاط الأربعة، وشبه بعضهم الجسم السليم بالقيثار ذى الأوتار المشدودة شدًّا متساويًا، فإذا ارتخى أحد هذه الأوتار أو اشتد، زال الانسجام وماتت الروح قبل موت الجسد.

ولقد عمد (القمايون) إلى تشريح الحيوانات، ووفق فى الكشف عن عصب البصر وأنابيب استاخيو Eustachian، واستطاع التميز بين الأوردة والشرايين، وفسر النوم والموت بأنهما ينجمان عن انحسار الدم من المخ، وقال بأن المخ هو مركز الذهن والحواس، الذى ينشأ عنه التفكير والتمييز..

ولقد تبعه فى هذه الآراء (أفلاطون، وأبقراط) فى حين خالفه (أرسطو، وزينون) زعيم الرواقيين(١٣٨) اللذان نسبا هذه الخواص إلى القلب لا إلى المخ. ولذا فإذا كان الفضل يرجع إلى (فيثاغورس) فى وضع أسس نظريات (أبقراط)، لا سيا فيا يخص عدد الأخلاط وأرقام الأيام البحرانية ونظرية الانسجام.. إلخ، فإن فضل (القمايون) أكبر حيث إنه نبه من جهة إلى ضرورة الالتجاء إلى التجربة العملية للتحقيق من صحة الافتراضات التكهنية ومن وجهة أخرى، إلى وجوب اقتران البحث الطبى بالتفكير الفلسفى.

وأهم المؤلفات التى خلفها (القمايون) هو كتاب «فى طبيعة الإنسان» (On nature) الذى ظل مدة طويلة المرجع الأساسى للطب قبل (الأبقراطى) وأثر تأثيرًا عميقًا فى طب

(أبقراط) نفسه، ويمكن اعتباره النواة التى أنجبت طب (قو). إلا أن ما وصلنا منه لا يتعدى نبذًا ضئيلة وردت فى كتابات بعض المعقبين عليه أمثال (أفلاطون) فى مؤلفه «فدون». ومع ذلك فإن دى رينزى Di Rienzi، يذهب إلى أن بعض أجزاء المجموعة (الأبقراطية) قد اقتبست اقتباسًا من كتابات (القهايون)، كما أنه يعتبر كتاب الطب القديم، وكتاب المرض المقدس، اللذين ينسبان عادة إلى (أبقراط) من إنتاج أطباء مدرسة كروتون... ويوافقه فى ذلك عدد من المؤرخين المعاصرين الذين ينسبون إلى هذه المدرسة أهمية تزداد يومًا بعد يوم.

ومن أشهر الأطباء الذين عرفوا قبل (أبقراط) (أنكساغورس Anaxagoras) الذى عاش فى أثينا وهو أيضًا إيونى الأصل. وقد أشتهر فيها - وهو ما يزال شابًا - بآرائه الثورية التى أثرت أعمق التأثير فى الفكر الإنسانى وفى نظرة الإنسان إلى الكون، فهو الذى قال إن الشمس ما هى إلا حجر منصهر وهاج... وإن عدد العناصر الأولية فى الكون لا يحصى لإنها من الصغر والدقة بحيث لا تؤثر فى الحس إلا إذا تجمع عدد كبير منها.. وإن عملية الخلق لم تكن سوى تجميع عناصر كثيرة كانت موجودة ولكنها غير مرئية، شأنها شأن تلك التى توجد فى الغذاء قبل أن تدخل فى تكوين الجسم بتجمعها فيه - وزعم (أنكساغورس) كذلك أن الخالق ما هو إلا مبدأ موجه سماه (النوس nous)، أو العقل الكونى، وهو يقابل نظرية الجاذبية والتنافر، فى آراء (أنبادقليس).

وقد حظى (أنكساغورس) فى أثينا بمنزلة عظيمة، وتمتع فيها بنفوذ كبير، وكان طبيبًا ناجحًا وإن كانت فلسفته هدامة، وقد روى (بلوتارخ) أنه تولى علاج (بريكليس) علاجًا نفسيًا كان له الفضل فى استقرار ذهنه، وفى تعليمه كيف يطبق قضايا المنطق على الطبيعة، وفى تحرره من الخزعبلات العقيمة، وفى اعتناقه دينًا كله سماحة وسلم وأمل.

* * *

يمكن اختصار النظريات التى راجت فى العالم الإغريق فى هذا العصر على النحو الآتى :

كان الركن الأوحد الماء فى نظرية (طاليس)، والنار فى رأى (هيراقليط)، والهواء فى

فلسفة (أنا كسيمين، وديوجين الأبولونى). أما (بارمنيد) فقد فرض ركنين هما النار والأرض ، وفرض (أنبادقليس) أربعة كما أسلفنا.

وأضاف (أنبادقليس) أن الروح إنما هى من الدم وأن الإحساس والحركة والفكر إنما هى عمليات مادية تشابه الهضم والتنفس.

وقد أجمعوا على أن الإحساس يتم بتصاعد أبخرة من الشيء المحسوس، تحتفظ بشكله، وأن هذه الأبخرة تصل إلى أعضاء الحس ومنها إلى مراكزه. وبعدئذ اختلفوا. قال البعض إن الإحساس يتم بملامسة الأبخرة لجزئيات مطابقة لها، على حين قال البعض الآخر، أمثال (أنكساغورس) ، إن الإحساس إنما يتم بملامسة النقيض، مستندين إلى أن الجلد لا يحس بسخونة شيء إلا إذا كان هو باردًا.

أما (ديموقريط)، وكانت نظرياته بعيدة الشأو، فقد تأمل فى المادة وتوصل إلى فكرة الذرة، أى أنه ليس ثمة شيء فى الكون سوى ذرات وفضاء - وأن الأجسام مع اختلافها، مكونة كلها من ذرات متجانسة لا تختلف إلا بالعدد والحجم، وأن الذرات دائمة الحركة فإذا انفصلت تحللت المادة وإذا عاد اتصالها عادت المادة إلى قوامها.

وتبعًا لهذه النظرية فإن الجسم الحيوانى مكون من ذرات تفصل بينها مسام تشكل صورة سلبية لها، وهذه الشبكة الجوفاء متصلة بالعالم الخارجى عن طريق النفس وأعضاء الحس، فتدخل عن طريقها ذرات حيوية تورد للجسم الحرارة والحيوية والأحاسيس. ثم أكد (ديموقريط) أن الإحساس إنما هو عملية ذهنية، فاللون والحلاوة والمرارة والحرارة والبرودة إنما هى من خلق الذهن الحاس.

وأوضح (أنبادقليس) أن الأجسام كلها - حتى الجامدة منها - تتصف بطبيعة أو مزاج ناتج عن نسبة الأركان الأربعة فيها، وأن الحس يتم بالمطابقة، أى أن الماء يدرك الماء، والهواء يدرك الهواء، وهكذا. وقد ظل العلماء يؤمنون بمزاج الأجسام ويصفون الأدوية تبعًا لمزاجها وطبائعها حتى عصر النهضة.

أما (أنكساغورس) فقد فصل بين الذهن والمادة فصلا تامًا، وفرض وجود ذرات مختلفة الأجناس، لا يمكن حصر أنواعها، فقال إن العظم مكون من جزيئات عظم، والعضل من جزيئات عضل، إلخ، غير أن جوهرًا عاليا يتحكم فيها كلها هو « النوس »

أو العقل الكونى الذى يتسلل كل الأجسام والأجرام، على الأرض أو فى السماء، ويتحكم فيها.

وديوجين، الذى نظر إلى الهواء على أنه ركن المادة الأساسى، أولاه كذلك الأولية فى الحس قائلا إن المخ مركز الحس حقًّا ولكنه لا يحس بذاته وإنما بالهواء الذى يحويه فى تجاويفه وتجاويف الأنف والأذن.

ونرى من كل هذه الأمثلة أن الهواء أعير فى الطب الإغريق دورًا أساسيًّا، فقد عده البعض ركنًا من أركان المادة، والبعض الأخر حاملا للحياة والنفس والأحاسيس، وناقلا للصفات الأساسية، وهى اليبس والرطوبة والبرودة والحرارة.

أبقراط

مهد الفلاسفة والعلماء الذين أسلفنا ذكرهم السبيل (لأبقراط، وسقراط، وارسطو) وأمثالهم، ولكنهم لم يعدوا قط الإنسان أكثر من حدث عارض فى الكون خاضع لقوانينه، ولم يحلوه موضعه الحقيق من الطبيعة، قريبًا من الأرض، متأثرا بقوانينها، مستجيبًا لمقتضياتها، ومع ذلك متحررًا منها وقادرًا على تهيئة حياة سليمة سعيدة لنفسه، بفضل قواه الذهنية والحيوية.

ولقد وفق من لحق بهم فيما أخفقوا فيه. وشيدوا الحضارة الأثينية، التى ازدهرت وترعرعت فى العصر الذى أطلق عليه «عهد الإنسانية الذهبى» ، على أسس إنسانية راسخة. وكان الرائد الأول للطب فى هذا الانفجار العلمى هو (أبقراط).

وترجع أول ترجمة (لأبقراط) إلى الطبيب (سورانس) الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى. غير أن نظرة النقد الحديث إلى (أبقراط) ومؤلفاته، قد تغيرت تغيرًا محسوسًا منذ أن بدأ العلماء يطبقون قواعد نقد النصوص، فقد أوضحت دراساتهم أن المعلومات التاريخية الموثوق بها عن شخصية (أبقراط) تكاد تكون معدومة وأن هذا الطبيب الذى كاد يكون أسطوريًّا لم يؤلف إلا قلة مما نسب إليه.

ولد (أبقراط) - تبعًا لسورانس - سنة ٤٩٠ ق.م. فى جزيرة قو، وكان ينتمى إلى

أسرة طبية عريقة، أسرة الأسقلبياد، التى تكونت من ذرية (أسقلابيوس) الطبيب الذى ورد ذكره فى منظومات (هوميروس)، والذى أُلّهَ بعد ذلك وقيل إنه ابن (الإله أبولو). ودرس (أبقراط) العلوم الطبية فى معبد أسقلبيوس بقو، ثم زار مصر وجميع مدن اليونان وبلادًا غيرها. ولم تمنعه الأسفار من ممارسة الطب فى مسقط رأسه.

وقد عرف (أبقراط) كل فلاسفة عصره، ونشأت علائق الصداقة بينه وبين الكثيرين منهم أمثال (ديموقريط) صاحب النظرية الذرية، و(جرجياس) أبى البلاغة، و (هروديكوس) إخصائى الجمباز، ومع أن اسمه لم يذكر فى كتابات معاصريه أمثال (أفلاطون) إلا مرات معدودة، فقد ذاع صيته فى حياته، وكاتبه ملوك الأرض وحاولوا استدراجه إلى بلادهم بالذهب دون جدوى، ونسجت القصص حول اسمه بعد مماته وأصبح اسمه «بقراط» على لسان العامة مرادفًا لقمة العلم والحكمة، حتى أنه يحكى إلى الآن أن النحل الذى يعيش حول قبره يفرز عسلا شافيًا للأمراض. ومما رواه المؤرخون المعقبون عليه ليدلوا على فضله، قال سليمان بن حسان إن (أفليمون) صاحب الفراسة كان يزعم أنه يستدل بتركيب الإنسان على أخلاقه، فأراد بعض تلاميذ (أبقراط) امتحان (أفليمون) هذا فصوروا صورة (أبقراط) ونهضوا بها إلى (أفليمون) ليحكم بها على أخلاقه، فنظر إليها وقال: رجل يحب الزنا، فقالوا له كذبت، إن هذه صورة (أبقراط) الحكيم، فقال لهم لابد لعلمى أن يصدق فاسألوه، فرجعوا إلى (أبقراط) وأخبروه بالخبر وبما قال لهم (أفليمون)، فقال (أبقراط) صدق (أفليمون) أحب الزنا ولكنى أملك نفسى، وقد نسبت هذه الحكاية أيضًا إلى (سقراط) وتلاميذته.

وروى حنين بن اسحق فى كتاب نوادر الفلاسفة والحكماء أنه كان منقوشا على فص خاتم (أبقراط) «المريض الذى يشتهى أرجى عندى من الصحيح الذى لا يشتهى شيئًا».

توفى (أبقراط) بعد حياته الحافلة فى لاريسا من أعمال تساليا سنة **٣٧٧** ق.م. وروى ابن أبى أصيبعة أنه مات بالفالج وأوصى أن يدفن معه درج من عاج لا يعلم ما فيه، «فلما اجتاز قيصر الملك بقبره رآه قبرًا ذليلا فأمر بتجديده لأنه كان من عادة الملوك أن يتفقدوا أحوال الحكماء فى حياتهم وبعد وفاتهم، فلما حضره لينظر إليه استخرج الدرج فوجد فيه الخمس والعشرين قضية فى الموت التى لا يعلم العلة فيها لأنه حكم فيها بالموت إلى أوقات معينة وأيام معلومة، ويقال إن (جالينوس) فسرها وهذا مما استبعده،

وإلا فلو كان ذلك حقًا ووجد تفسير (جالينوس)، لنقل إلى العربية، كما قد فعل ذلك بغيره من كتب (أبقراط) التى فسرها (جالينوس)، فإنها نقلت بأسرها إلى العربية».

أما قو، التى نشأت فيها أشهر مدرسة طب فى العالم القديم، والتى أنجبت سلسلة من العلماء على رأسهم (أبقراط)، فإنها جزيرة صغيرة، مساحتها مائة ميل مربع، تقع فى بحر إيجيه بالقرب من الركن الجنوبى الغربى لآسيا الصغرى. وقد عمر هذه الجزيرة شعب دورى نزح إليها من (إبيدورس) فى البلوبونيز حيث كان يعبد (أسقلبيوس)، وقد شيد هذا الشعب وسط المياه المعدنية التى تزخر بها ضواحى عاصمتها معبدًا لهذا الإله أصبح مرادًا للمرضى. وإلى اليوم يشار إلى شجرة دلب، تبلغ دائرتها ثلاثين مترا، وتتكىء غصونها الكهلة على أعمدة من الخشب فى قلب سوق المدينة، ويقال إن (أبقراط) كان يأوى إلى ظلها لعيادة مرضاه، وقد كشفت الحفائر فى ضواحى العاصمة عن معابد وأروقة ومداخل معمدة، يرجع أقدمها إلى القرن السادس وأحدثها إلى القرن الثانى قبل الميلاد، وقد هدمها زلزال سنة ٥٥٤ ميلادية.

وقد ورثنا مجموعة مؤلفات تسمى (بالمجموعة الأبقراطية Corpus hippocraticum) وترجع أقدم نسخة موجودة منها اليوم، وأقدم ترجمة لها وهى باللاتينية، إلى القرن التاسع الميلادى، وتوجد من تلك الأصول نسخ فى فينا، وباريس، وفلورنسا، والفاتيكان، والبندقية، وليس من بينها واحدة كاملة. وبخصوص تاريخ تلك المجموعة فقد ظهرت بعض أجزائها، أول الأمر، فى مدينة الإسكندرية عندما نشأت بها مدرستها الشهيرة، وهذا فى أول القرن الثالث ق.م. أى ما يزيد عن قرن ونصف بعد وفاة (أبقراط). وكانت وزعت قبل ذلك نسخ كثيرة فى بلاد اليونان. ولم يتم جمعها نهائيًا إلا فى القرن الثالث ق.م. عندما أمر حاكم الإسكندرية البطلمى بضمها إلى مكتبة المدرسة، وسميت بعد ذلك بالمجموعة (الأبقراطية) وعلى مر الزمن دست عليها مؤلفات عدة مختلفة القيمة، لما كان يحيط باسم (أبقراط) من الإجلال فى هذا الوقت، كما تسند اليوم كل النكات إلى جحا أو أبى النواس، واستمرت عملية الإضافة فى روما حتى بعد الميلاد بقرنين، ولم يفت الأطباء الأقدمين هذا العبث، واعترض كثير منهم على تبعية عدة أجزاء منها، وألف (جالينوس) كتابا فى كتب (أبقراط) الصحيحة وغير الصحيحة، وقال عن كتاب الأمراض الوافدة «إنى وغيرى من المفسرين نعلم أن المقالة الرابعة والخامسة والسابعة

مدسوسة ليست من كلام (أبقراط)»، وقد وافق أحدث النقاد على هذا ونوا رأيهم على اعتبارات لغوية وموضوعية وعلى تضارب بعض الآراء التى جاءت فى مختلف الأجزاء.

وهناك مدرسة أخرى ازدهرت فى الوقت ذاته ونافست مدرسة قو، وانجبت الفطاحل أمثال الفلكى (أودكسوس) (٤٠٩ - ٣٥٩ ق.م.) الذى حدد أيام السنة بأنها ٣٦٥ يوما وربع يوم، والمعمارى (ستراتو) الذى شيد منارة الإسكندرية، وبعض العلماء الذين جنحوا فيما بعد إلى الإسكندرية، وقد تميزت بنظريات سبق لها شأن كبير فى التفكير الطبى المصرى القديم، وربما ورثتها عنه، فحواها أن اجتاز الهضم حدوده الطبيعية، ينجم عنه ظهور مواد غير طبيعية تسرى فى الجسم وتسبب المرض.

نظرية الاخلاط:

أما أساس مذهب مدرسة قو فهو مبنى على نظرية الأخلاط، وقد شيدت هذه النظرية على تأملات فلسفية مبنية على فكرة (الفيسيس Physis). وهذه الكلمة التى ترجمت بطبيعة الإنسان، واشتقت منها كلمة فسيولوجيا، ويرد ذكرها كثيرًا فى كتابات (أبقراط، وجالينوس) وغيرهما، تمثل ركنًا أساسيا فى نظرتهم الحيوية إلى علم الحياة، هو اعتبار الجسم كلا متماسكًا، والاعتقاد بأن الجسم يعمل كوحدة، وأن نشاط أجزائه المختلفة يخضع لتنسيق هذه الوحدة العليا، وأنه كلما كمل تنسيق الوحدة فى العمل قرب الجسم من الكمال، وعلى العكس من ذلك، إن استقلال جزء فى نشاطه يؤدى إلى المرض.

وليس من شك فى أن فكرة «الفيسيس» هذه التى اثبتتها البحوث الحديثة فى كيفية احتفاظ الجسم بتركيبه الداخلى، وفى استجابات المحور المكون من الجهاز العصبى ومن الغدد الصم إلى مختلف التأثيرات الخارجية، كانت فكرة فلسفية مجردة لا يمكن تحليلها، وإن كانوا رأوا فيها سر الحياة. أما عن علاقة وحدة الجسم بما يحيطه، فإن (أبقراط، وجالينوس) بعده كانا ينظران إلى الحياة على أنها تجاوب بين (الفيسيس) والمحيط، بل إنهما كانا يعتبران الجسم وبيئته وحدة متكاملة لها قطبان: أحدهما الجسم والآخر البيئة، وخاصتان:

إحداهما : خضوع الجسم للمحيط.

والأخرى : استيعابه له بأن يأخذ منه ما ينفعه ويلفظ ما لايلائمة، فإن نجحت عملية الاستيعاب أو الهضم، على حد تعبيرهم، تمت الصحة، وإلا نتج المرض، فالمرض إذن حالة فردية لهذه العملية.

وترتبط الطريقة التى تجرى بها « الفيسيس » هذه العمليات ارتباطًا وثيقا بنظرية الاخلاط. تلك النظرية التى عرفت، كما قلنا، زمنًا طويلا قبل (أبقراط)،وتأثرت أولا بالنظريات (الفيثاغورية) فى الأعداد وقداسة رقم أربعة، وثانيًا بنظريات (أنباد قليس) الذى حدد الأركان الأربعة إذ قال إنها : الماء، والهواء، والتراب، والنار.

وبالمثل فإن أخلاط الجسم حدد عددها بهذا الرقم عينه، وهى : الدم، والبلغم، والصفراء، والسوداء، وطبائعها أربع : السخونة، والبرودة، واليبس، والرطوبة.

ثم ربط المذهبان اللذان أتيا بعد هذا بين الركن والخلط والعضو والطبيعة والمزاج، مثلا قيل إن الدم من القلب ويسيطر على المخ وصفته السخونة، والبلغم من المخ وسلطانة الرئة وصفته البرودة، والصفراء من الكبد وسلطانها المرارة وصفتها الجفاف، والسوداء من الطحال وسلطانها المعدة وصفتها الرطوبة. ووصف طابع الإنسان بالخلط المسيطر فيه، فالدم يسيطر على الدمويين، والصفراء على الصفراويين والسوداء على السوداويين، وهكذا، ثم وصف النفثيون أمزجة مختلطة تجمع بين أكثر من خلط وأكثر من طبيعة، كأن يجتمع فيها الرطوبة والسخونة أو السخونة أو الجفاف، أو البرودة والرطوبة، أو البرودة والجفاف.

وقد ذاع تقسيم الطبائع إلى أربع حتى بين غير المتطبيين، ونرى الشعراء يتناولونه فى مزجهم، وأبا نواس يقول :

سألت أخى أبا عيسى ... وجبريل له عقل
فقلت الراح تعجبنى ... فقال كثيرها قتل
فقلت له قدر لى ... فقال وقوله فصل
وجدت طبائع الإنسان ... أربعة هى الأصل
فأربعة لأربعة ... لكل طبيعة رطل

وما جبريل أبو عيسى الذى يستشهد به أبو نواس إلا جبريل بن بختيشوع من مشاهير أطباء أوائل العهد الإسلامى، ومن الطريف أن هذه الأبيات تزدان بها جدران فندق من فنادق القاهرة الوجيهة، وهذا ولا شك لحث رواده على الوصول إلى هذا العدد من الأرطال.

ولقد ظل هذا المذهب أساسًا للطب حتى القرن الثامن عشر، عندما عرفت الجراثيم ونشأ علم البكتريولوجيا الذى أكد أن المرض ينتج عن العدوى، وها نحن اليوم نذهب مذهبًا مشابهًا لنظرية الأخلاط والأمزجة، من حيث إننا لا نرجع الإصابة بالدرن إلى مجرد الجرثومة ولكننا نعترف بأهمية استعداد الأنسجة إليها.

كان المرض، إذن، فى نظرة هؤلاء الأغريق، ينبع من الجسم ذاته ومن مزاجه الموروث. ولكن (الأبقراطيين) اعتقدوا، بالإضافة، أن عدم التوازن قد يحدث أيضًا إذا ما سيطر أحد العناصر الأربعة على الأخرى، فيغلب الخلط المقابل له على الأخلاط الأخرى، أما عناصر البيئة فإنها كانت تشمل الهواء والماء والطعام وما يقابلها من رطوبة أو يبس أو حرارة، ومن أخلاط مختلفة. وساد الاعتقاد بأن حال الإنسان، مرضية كانت أم صحية، تتفق ومناخ خاص، وأن الأمراض الموسمية تتبع طبيعة هذا الموسم أو ذاك، فسمى (أبقراط) سنة من السنين طاعونية، وأخرى درنية.. وهكذا.

وآخر عامل مرضى، بعد كل من المزاج والبيئة، كان فى نظر (أبقراط) ما ينتجه نشاط الإنسان وعاداته.

تخيل (أبقراط) المرض، إذن، على أنه مثال من ظاهرة طبيعية فى الجسم، لاتختلف عن عمليات الصحة إلا بالشدة، لأنها إحدى عمليات الهضم التى سبق وذكرناها، التى يتبعها التخلص من فضلات الأكل أو زوائد الأخلاط. ثم زعم أن عملية التخلص هذه - وهى عملية الشفاء - تتم بالنسبة للأمراض الحادة فى أيام معينة هى أيام البحران critical days، عن طريق الإفرازات الطبيعية، أى العرق، والبول، والإسهال، والنزف، والقيح. أما انتهاء الأمراض المزمنة فإنه. أقل تحديدًا ويتم لابالبحران وإنما بالتحلل lysis، كما سميت قوى الجسم الشافية Vis medicatrix naturae أى وسائل الطبيعة الشافية.

وبذلك قسم مجرى المرض إلى أطوار ثلاثة، هى الطور الخام، فطور النضج فطور الأزمة أو البحران، وهى التى أطلق عليها العرب ؛ الابتداء والتزايد والانتهاء والانحطاط.

وأضاف (جالينوس) فيما بعد إضافة كان لها شأن كبير فى النظريات والعلاج من بعده، إذ حدد لكل خلط منفذًا خاصًا : الأنف والفم والحيض للدم، والأنف للبلغم، وكيس الصفراء للصفراء، والطحال والمعدة للسوداء.

وكانت النتيجة المنطقية للإيمان بقوى الجسم الشافية أن الجسم يستطيع حل مشاكله بنفسه، حتى إذا تحتم عليه تحمل المرض فى أثناء هذه العملية. يترتب على ذلك أن أنجح وسيلة للعلاج هى ترك الجسم يستعيد صحته تلقائيًا.. وهذا المبدأ نجد مثله فى (لفافة إدوين سميث) حين تقرأ هذه العبارة : « دعه مربوطًا فى مرساه.. ».

ومن هنا يجدر - إن تعذر الشفاء - تغيير الظروف التى حدث فيها المرض، وذلك بأن ينقل المريض إلى بيئة صالحة، وأن يقدم إليه طعام صحى.. ولقد قال (أفلاطون) فى هذا المعنى فى مؤلفه المسمى (طيماوس Timeus, 90) : « هناك علاج واحد لجميع الأمراض، وهو تزويد المريض بغذاء مناسب ووظائف ملائمة ».

وكذلك فقد فسرت التربية فى هذا العصر بأنها إمداد الشخص ببيئة صالحة وسميت هذه التهيئة، بال (diaita أو regime) ومعناها « نظام الحياة »، وهما يكونان أساس العلاج (الأبقراطى)، ونظام الحياة هذا كان يعتمد إلى حد كبير على الرياضة التى كانت تختلف باختلاف أساليب الأساتذة وأشهرهم (هيروديكوس) الذى كان نظامه يشتمل على الغذاء ونشر الخشب والمشى التدريجى والقراءة بصوت مرتفع والغناء... الخ.

كما أنه لم يفت (الأبقراطيين) أن هناك حالات تستوجب التأثير لا فى البيئة والوظيفة فحسب، ولكن فى الجسم نفسه وهذا بمساعدته مباشرة، لا سيما فى عملية التخلص من الفضلات ومن الأخلاط الزائدة، فيعطى مثلا ما يدر الصفراء إذا زاد هذا الخلط، ويفصد إذا زاد الدم، وهكذا، وفى هذا التجرد من العقاقير المركبة والوصفات الغريبة اختلاف كبير عما كان معهودًا فى طب العصر الفرعونى.

ولنلق الآن نظرة سريعة على مؤلفات (أبقراط). يقول (ليتريه Littré) : إنها بلغت

اثنين وسبعين كتابًا تتناول ثلاثة وخمسين موضوعًا. وسوف تظهر لنا بعض مقتطفات من هذه الكتب سعة أفقه وأسلوب تفكيره الواقعى المنطق المتسم بالطلاقة والتحرر من جميع قيود النظريات والفروض الفلسفية، كما أنها توضح نظرته إلى المريض، التى كانت فى أساسها تعنى بدراسة تاريخ المرض، وتطوره، والتكهن بمآله، ثم تبحث بعد ذلك عن كيفية العلاج اعتماد على النتائج المستخلصة من تاريخه.

كتاب الطب القديم:

يقول هذا الكتاب إن البحث عن أصل الإنسان بطريقة (أنبا دقليس) عقيم وعديم النفع، وإن الأجدر بنا أن نبحث عن استجابة الإنسان لبيئته وطعامه وشرابه ومهنته، وأن ندرك أن حالة الجسم تختلف تبعًا لتنظيم أعضائه، وبهذا يفرق هذا المؤلف بين علم الحياة وبين بقية العلوم الحيوية. ولقد نسب المؤرخون باستثناء ليترى، هذا المؤلف إلى مدرسة (قو) عامة، لا إلى (أبقراط) نفسه، إذ إن هذه المدرسة تمثل النظرة العلمية المتزنة إلى الطب، الذى رأته يختلف عن العلوم البحتة التى تبحث - على المنهج الذى سلكه (أنبا دقليس) - فيما يحتويه كل من السماء والأرض، والتى تتطلب مقدمات أو معطيات تشيد عليها بناءها.

وفى كتاب **الأهوية والمياه**، درس (أبقراط) استجابة الجسم للمحيط الذى يعيش فيه بمعناه الإقليمى، فأوضح أن طبائع الناس تختلف باختلاف طبيعة بلادهم وميز بين شكل كل من سكان الجبال والمنخفضات والأراضى ذات المياه الراكدة والمناطق الجافة، وبين صفاتهم. وهذه الملاحظات الدقيقة كانت أساس نظرية (جالينوس) التى ربطت خواص الذهن بخواص الجسد.

ثم بحث فى تأثير المناخ على الأمراض الشائعة، وضرب أمثلة عدة مستمدة من شعوب أوروبا وآسيا.. ومن هذه الأمثلة - التى ذكرت كثيرًا - ما قاله عن (تخنث الأسقوثيين)، الذى عزاه إلى أسباب طبيعية فى حين نسبة (هيرودوت) إلى غضب الآلهة. إلا أنه لا يصف هذه التأثيرات بالجمود الحتمى، وإنما يقول إن هذه العوامل أو تلك تجعل الإنسان يميل إلى كذا أو كذا، وهو يجعل الإنسان فى النهاية هو المتغلب دائمًا على

الطبيعة بفضل قواه الكامنة.. ثم يختتم بوصف المياه المعدنية وبتحليل فوائدها فى الحالات المختلفة.

ويتناول كتاب **الأوبئة** أو كما سماه العرب الأمراض الوافدة أو إبيديميا، ما يسميه بمزاج كل سنة من السنوات، أى نوع المرض الذى انتشر فيها، ويتقصى أسباب هذا الانتشار وارتباطه بالجو، وكأن هذا المرض أو ذاك عرض لمزاج السنة. وأهم مزاجين وصفهما هما المزاج الطاعونى والمزاج الدرنى، ومن مظاهر هذه الأمزجة الحمى المخية، وحمى تشبه فى وصفها الملاريا، وطاعون مصحوب بالخراريج، وآخر بالجمرة، وثالث بالتدرن. ولسنا فى حاجة إلى أن نصف الدقة المتناهية التى توخاها فى وصفه للمرض وأطواره والأشخاص الذين أصيبوا به والمضاعفات التى اعترتهم.

ولقد نادى بضرورة تدوين الطبيب كل ملاحظاته بدقة وأمانة، وبالرجوع إليها دائمًا تجنبًا للانحراف عن الحقيقة. إلا أنه لم يذكر شيئًا عن العلاج وكأنه يكتفى بالملاحظة والتأمل، وقد ساور البعض الشك فى أن بعض هذا المؤلف منحول إليه.

وفى كتاب **تقدمه المعرفة** اهتم اهتمامًا بالغًا بدراسة المرض من حيث التكهن بمآله، بل إنه غلب ذلك على التشخيص، أى أنه فضل معرفة تاريخ المرض الطبيعى على مجرد تسميته، وهذا التغليب يميز مدرسة (قو) من مدرسة (قنيدوس). وقد قام فى هذا المؤلف «بتعريف العلامات التى يقف بها الطبيب على أحوال المرض فى الأزمان الثلاثة : الماضى والحاضر والمستقبل»، وقال إنه «إذا أخبر الطبيب المريض بالماضى وثق المريض بالطبيب فاستسلم له فتمكن الطبيب من علاجه.. وإذا عرف الحاضر قابله بما ينبغى.. وإذا عرف المستقبل استعد له بجميع ما يقابله به قبل أن يهجم عليه بما لا يمهله..» وهذا المؤلف يحمل طابع خبرة (أبقراط) الشخصية.

ومما أخذ عليه، عدد الحالات التى ذكر فيها نهاية سيئة تنبأ بها، وقلة اهتمامه بوصف العلاج. وقد وصف الطبيب (أسقلبيوس) فى القرن الأول ق. م. هذا الاهتمام بتحديد المآل بأنه لا يزيد عن انشغال بالموت.. ولم يذكر ما فى وصفه للحالات التى لم ينجح فى علاجها من الأمانة العلمية، على عكس (جالينوس) الذى كان دائم التباهى بالحالات التى وفق فى علاجها.

ولنذكر الآن بعض أوصافه الأكلينيكية فى شيء من الإسهاب.

السحنة الأبقراطية : وفى هذا الوصف نرى (أبقراط) يميز بين الوجه (الأبقراطى) العرض، الناجم عن ضياع السوائل نتيجة للإسهال أو الجوع، وبين الوجه (الأبقراطى) الحقيقى، يقول : «هو إن الأنف يكون فيه مدببًا، والعينان غائرتين، والصدغان منخفضين، والأذنان بارزتين.. ويكون جلد الوجه مشدودًا، جافًا، ذا لون أصفر أو قاتم. وإذا كان الوجه على هذه الحال، وإذا تعسر تشخيص المرض، وجب السؤال عما إذا كان المريض قد أصيب بأرق أو بإسهال غير عادى، أو إذا كان يشكو من الجوع، ففى هذه الحال يكون المرض أقل خطورة، وينذر بحدوث البحران بعد أربع وعشرين ساعة. أما إذا أجاب بالنفى ولم يكن قد برأ من علته بعد هذه الفترة كان ذلك دليلا على خطورة حالته البالغة».

وهاكم بعض أوصاف إكلينيكية أخرى تتميز بالدقة المتناهية :

«وإذا نفرت العينان من الضوء، أو سالت منها الدموع، أو شردت بطريقة غير إرادية، أو بدت إحداها أصغر من الأخرى، أو ظهرت فيها أوردة سوداء، أو إذا تغير لون الجلد، فإن ذلك يدل على خطورة الحالة وربما على قرب النهاية. ويجب فحص العينين فى أثناء النوم، فإذا ظهر بياضهما مع انطباق الجفنين، وإذا لم يكن ذلك ناجماً عن إسهال أصاب المريض، أو دواء تناوله، وإذا لم يكن أمراً عادياً بالنسبة للمريض، فإن هذا العارض يعتبر سيئاً، بل خطيراً للغاية، يضاف إلى ذلك أنه إذا تغير شكل الجفن أو الشفة أو الأنف أو أزرق لونها فإن نهاية المريض تكون أوشكت. وإذا تدلت الشفتان وبردتا أو ابيض لونهما بشدة كان ذلك ينبئ بالموت»

«فإن التنفس السريع يدل على ألم والتهاب فوق الحجاب الحاجز، أما التنفس العميق البطيء فإنه ينتج من الذهن.. وفيما يتعلق بالنوم ينبغى أن يستيقظ المريض نهاراً وأن ينام ليلا كما هى العادة، فإن تغير هذا النظام من العلامات السيئة»

عن تقيح البلورا : من أعراضها أن حرارة المريض لا تنخفض وإنما تكون معتدلة فى النهار ومرتفعة بالليل، ويتبع ذلك عرق غزير وسعال لا يصحبه بصاق. وتغور العينان، وتظهر بقع حمراء على الخدين، وتتقوس الأظافر.. وفى هذا أول إشارة إلى

الأطافر المقوسة فى التاريخ، وقد سميت (بالأبقراطية).

ألم الأذن : ألم الأذن الشديد المصحوب بارتفاع درجة الحرارة يخشى أن تكون نتيجة هذيان المريض ثم وفاته... أما إذا أفرزت الأذن صديداً أبيض، كان ذلك بشيراً بالشفاء.

ولم يهمل (أبقراط) الجراحة. وقد كان علم العظام قد وصل إلى درجة كبيرة من التقدم، والفضل فى ذلك يرجع من غير شك إلى ممارسة الألعاب الرياضية العنيفة مثل المصارعة وما ينتج عنها من كسور وخلع. وساضيف على سبيل المثال ما قاله عن انتقال عظمة الفخذ. فقد وصف (أبقراط) أربعة مواقع لهذا الانتقال. ومن الغريب أنه يقول- على عكس ما نراه اليوم - إن الانتقال إلى الجهة الأنسية أكثر حدوثاً، وقد يكون سبب ذلك «مسكة» خاصة من مسكات المصارعة العنيفة. أما وصفه لهذا الانتقال فلا يفوقه أى وصف جاء بعده... يقول :

«تبدو الساق أقصر إذا وضعت إلى جانب الأخرى، ويرجع هذا إلى سببين : أن رأس عظمة الفخذ ترتكز على العظمة التى تصل المفصل بالعانة، فى حين يحمل التجويف الفلق رقبة العظمة. وتزول استدارة الإلية وتبدو مبسوطة للسبب نفسه وهو انتقال العظمة إلى الداخل، كما أن طرف عظمة الفخذ الأسفل ومعه الساق والقدم ينحرف إلى الخارج. ويتعذر على المريض أن يثنى الفخذ على العانة. ويمكن جس رأس عظمة الفخذ فى العجان.»

ولرد العظمة كان (أبقراط) يوصى بتعليق المريض من قدميه، ثم يوضع عضد المعالج بين فخذى المريض أى بين العجان ورأس العظمة المنقولة، ثم بالقبض على اليد وهى فى وضعها باليد الأخرى بحيث يصير المعالج معلقاً على المريض. وبهذا يضيف وزنه إلى وزن المريض فى مد العظمة ويدفع بها فى التجويف الفلق، على حين يرفع عضده العظمة حتى تنزلق نحو موضعها الأصلى. وأوصى كذلك بأن يختار لهذا العلاج مساعد ذكى قوى.

أما كتاب الفصول : Aphorisms، فإنه عد حتى آخر القرون الوسطى خلاصة التعليم (الأبقراطى) وموجز لما جاء فى سائر كتبه، مثل الأهوية والبلدان وكتاب الأمراض

وهناك كتب أخرى نسبت إليه منها كتب : علامات القضايا (أى الدالة على الموت)، وعلامات البحران، وحبل على حبل، وفى المولودين فى السبعة أشهر، وفى الجنون، وفى الأسابيع، وفى المولودين لثمانية أشهر، وفى الفصد والحجامة، وفى البول، وفى حفظ الصحة، وفى المرض الإلهى (حيث أنكر أن للصرع سبباً فوق الطبيعى)، وفى قسمة الإنسان إلى مزاج السنة، وكتاب الوحى، عدا عدة رسالات للملوك. ومن المؤكد أن بعض هذه الكتب، مثل كتاب الأمراض وكتاب أمراض النساء، من تأليف مدرسة (قنيدوس) وأن كتب الأحلام وطبيعة الإنسان والأهوية والمرض الإلهى من تأليف المدرسة السفسطية.

أما ما قد يكفى لتخليد اسم (أبقراط) بين الحكماء الملهمين، فهو كتاب الوصية، والقسم الذى فرضه على من كان يبغى مزاولة صناعة الطب : وقد روى أنه فرض هذا العهد عندما شعر بأن الصناعة قد تخرج عن أهل (أسقلبيوس) إلى غيرهم، فوضعه ليستحلف فيه المتعلم لها على أن يكون لازماً للطهارة والفضيلة، ثم وضع كتاب التوصية لتعريف ما يجب أن يتصف به الطبيب من خلق ومظهر وهندام فقال :

« يجب، أن يكون الطبيب فى جنسه حراً، وفى طبعه جيداً، حديث السن، معتدل القامة، متناسب الأعضاء، جيد الفهم، حسن الحديث، صحيح الرأى، عفيفاً، شجاعاً. غير محب للفضة، مالكا نفسه عند الغضب، مشاركاً للعليل، مشفقاً عليه، حافظاً للأسرار، محتملا للشتيمة، لأن قوماً من المبرسمين وأصحاب الوسواس السوداوى يقابلوننا بذلك، وينبغى أن نحتملهم عليه، ولا يستقصى قص أظافير يديه ولا يتركها تعلو على أطراف أصابعه، ويجب أن تكون ثيابه بيضاء نقية، وألا يكون فى مشيه مستعجلا لأن ذلك دليل على الطيش، ولا متباطئاً لأنه يدل على فتور النفس، وإذا دعى إلى المريض فليقعد متربعاً ويختبر منه حاله بسكون وتأن لا بقلق واضطراب.

وهناك فقرة من القسم أثارت جدلا حول طابع القسم اللاهوتى، وهل كان الغرض منه الاحتفاظ بالطب سراً قاصراً على بعض المريدين، وها هى الفقرة : وأشرك أولادى وأولاد المعلم لى، والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وأحلفوا بالناموس الطبى فى الوصايا والعلوم وسائر ما فى الصناعة وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك. »

وإذا كان من الصعب البت فى تلك المسألة لضياع الصورة الأصلية للقسم ولما

اعتراها من التبديل والإضافة على يد المدارس المتتابعة والكنائس المختلفة، فإن هذه السرية تبدو كأنها من آثار طقوس (الفيثاغورية، والأورفية) وغيرهما من المذاهب السرية السائدة فى هذا العصر.

ولكن الروح العالية المتنزهة التى تسود فقرات القسم تظهر بدون شك المكانة الرفيعة السامية التى أحل فيها (أبقراط) مهنة الطب، كما أن تعهد من يؤدى القسم بعلاج المرضى دون الالتجاء إلى أى إجراء لا هوتى أو كهنوتى يبرهن على وجود فئة - حتى قبل (أبقراط) - من الأطباء الأحرار فى ممارسة مهنتهم، لا يخضعون إلا لقوانين آداب مهنتهم التى أخذوا على أنفسهم بها.

أما عن حقيقة (أبقراط) التاريخية، فإذا أخذنا جدلا برأى من أنكرها وأكد أنه شخصية خيالية، وإذا قبلنا أن الأغريق اختلقوه فقد أضاف هذا إلى إعجابنا بهم إعجاباً، فلم يؤلف قوم من الأساطير إلا ما هو جدير به، ولم يختلق شعب شخصية إلا ليودع فيها مثله العليا.

الطب الإغريق بعد أبقراط

تبع (أبقراط) فى المهنة ابناه (تسالدس، ودراكو)، وصهره (بوليبس)، وظلت مدرسته محافظة على مكانتها إلى درجة أن الأمراء كانوا يتخيرون أطباءهم من بين أتباعها. وقيل أن أحد هؤلاء الأتباع واسمه (فيلومنس)، هو الذى نقل إلى الإسكندرية فى غضون القرن الثالث الميلادى، كتاب (الأوبئة) مع سائر كتب مدرسة (قو).

غير أن هذا العصر امتاز بازدهار الفلسفة الإغريقية، فأضاف الفلاسفة والأطباء أوجهاً جديدة إلى طب (أبقراط)، ومن هؤلاء الفلاسفة (أفلاطون) الذى أقحم نفسه على الطب وأخذ يفرق بالجدل الفلسفى بين مذهبى الـ biopsychose، القائل بأن الجسم يكيف الذهن و الـ psyxhobiose، القائل بعكس ذلك، وهو الذى أخذ به هو و(سقراط) وقد آمنا بخلود الروح وبحرية الإرادة.

ثم نجد من بعدهما (أرسطو) - وكان حظه من البيولوجيا والفلسفة أكثر من حظه

الحادة والأبيديميا وكتابه فى أوجاع النساء. والفصول مكتوبة على شكل امثال وحكم عددها ٤١٣. ومع أن البعض تشكك فى تبعية بعضها إليه، فإنها تحمل طابع العبقرية والابتكار، وتنم على إلمام عميق بالطب وعن خبرة، وكأنه يضع عناصر ليستخدمها خلفه فى تشييد بناء كان ما يزال تحقيقه متعذراً عليه. وسأذكر بعضها على سبيل المثال مبتدئاً بأولها، وهى تلخص حكمة شيخ أدرك سراب إمكانات الذهن البشرى فركز فى جملة قصيرة دسمة خلاصة تجاربه.

إن الحياة قصيرة، والفن طويل، والفرص عابرة، والتجربة غير مأمونة، والتعقل عسير، لا يكفى أن يعمل الطبيب ما يناسب المريض، ولكن يجب أيضاً أن يساعده المريض، ومن يعاونونه، وكل ما يحيط به.

وهاكم أمثلة أخرى:

إن التكهن بالإبراء أو بالموت فى الأمراض الحادة ليس أكيداً.

إن الألم والاحمرار يحدثان فى أثناء تكوين القيح أكثر من بعده.

إذا انتاب الإسهال مريضاً مسلولا كان ذلك علامة لنهاية مشؤومة.

إن من يصاب بالمرض الرباعى (الملاريا) لا يصاب بالصرع، إذا أصيب بالصرع وبعده بالحمى فإنه يشفى من الصرع. (لو أن الزهرى كان وصل إلى العالم القديم بعد، لكنت أتخيل أن قائل هذه العبارة ليس (بأبقراط) فى القرن الخامس ق.م.

ولكنه (واجنر ياورج)، الذى عالج إصابة المخ بالزهرى بإحداث عدوى الملاريا، وهذا بعد (أبقراط) بخمسة وعشرين قرناً.

وقد جمعت فى مقال آخر من الفصول ثلاثة عشر تتعلق بالغدد الصم وأمراضها وثمانية منها خاصة بالحمل والإجهاض، وثلاثة تتصل بالنقرس، وواحداً بالدوالى وواحداً بالعمالقة، واثنين بالصلع. وتبدو هذه الفصول مبنية على حقائق إكلينيكية أكدها البحث الجديد ما عدا أحدها وهو التالى:

إذا لم تنجب امرأة أطفالا وأردت أن تعرف إذا كانت خصباً أم لا، فلفها فى معطف، واعمل لها تبخيراً من أسفل. فإذا شممت رائحة التبخير الصاعدة عن طريق

جسمها إلى أنفها وفمها، واعلم أن العقم لا يرجع إليها.» وهذا يذكرنا بوصفة مماثلة وردت فى (لفافة كاهون) المصرية التى نسخت ١٨٠٠ ق. م.

أما الفصول الأخرى الخاصة بالغدد، فإنها تستند على حقائق يعترف بها الفن الأكلينيكى حتى اليوم:

«إذا تهدل ثديا امرأة حامل دل ذلك على أنها ستجهض.»

«إذا سال لبن كثير من ثديى امرأة حامل، فإن جنينها ضعيف.»

«إذا جاء الحيض امرأة حامل استحال معه أن تكون صحة الجنين جيدة».

وقال عن العمالقة «إن القامة المديدة السامقة ليست منفرة فى مرحلة الشباب ولكنها تصبح فى الكبر غير مريحة، وتقل مزاياها عن القامة القصيرة».

وهذا يطابق ما هو معروف عن شيخوخة العمالقة المبكرة وعن قصر حياة أصحاب الأبدان الضخمة.

وفى الصلع قال: «إن الأغوات لا يصابون بالصلع ولا بالنقرس». وقد تحقق العلم الحديث من علاقة إفرازات غدد الذكور الجنسية بسقوط الشعر وبتمثيل الحمض البولى.

وفى النقرس أيضاً: «لا تصاب النساء بالنقرس قبل توقف الحيض» و«لا يصاب الأطفال بالنقرس قبل أن يتذوقوا الملذات الجنسية».

* * *

هذه نبذة عن مؤلفات (أبقراط). وقد ألف كما قلنا كتباً أخرى عدة. قال ليترى إنها تبلغ الاثنين والسبعين. وقد عدّ منها العرب ثلاثين أصيلا، اما التى أوصوا بدراستها لمن يقرأ صناعة الطب، فهى اثنى عشر كتاباً هى: كتاب الأجنة الذى يتضمن القول فى كون المنى، وكون الجنين، وكون الأعضاء، وكتب طبيعة الإنسان، والأهوية والمياه والبلدان، والفصول، وتقدمه المعرفة، والأمراض الحادة، وأوجاع النساء، والأمراض الوافدة، والغذاء، وقاطيطريون أى حانوت الطبيب، وفيه ما يحتاج إليه من أعمال الطب التى تختص بأعمال اليدين دون غيرهما وكتاب الكسر والجبر.

من الطب - يعكف على الملاحظة، ويقوم بالتجارب البيولوجية، ولا يتحرج عن أن ينادى بإجرائها على أدنى الفصائل الحيوانية دون شعور بالاشمئزاز، إذ إنه كان يؤمن بأن الطبيعة لم تخلق مصادفة، ونراه يقسم التركيب organisation إلى درجات ثلاث : أولاها تتناول الأركان الأولى، وتمنح كل عنصر خواصه الطبيعية، وثانيتها تتناول الأنسجة المتجانسة مثل العظام أو اللحم، وثالثها تتناول الأعضاء المكونة من الأنسجة غير المتجانسة مثل اليدين والوجه وغيرهما مما يحتوى على أنسجة مختلفة كاللحم والعظم والأوعية.. إلخ. وكان هذا أول أساس لتقسيمنا مكونات الجسم إلى أنسجة وأعضاء.

ثم يدرس (أرسطو) تطور الجنين ودرجات نموه فى البيضة مؤسساً بذلك علم الأجنة. وهو لا يقصر دراسته على مقارنة الأعضاء عينها فى الحيوانات المختلفة كالرئة مثلا فى مختلف الأجناس، وإنما يعنى كذلك بدراسة نظائرها فى الحيوانات المجردة من الرئة، مؤسساً بذلك علم التشريح المقارن..

ومن استنتاجاته التى تبدو لنا من أحدث التعميمات أن خلو جسم الإنسان من الشعر أو من أى غطاء آخر، وعدم تخصص أعضائه تخصصاً ضيقاً يميزانه بميزتين هامتين على سائر الحيوانات. إذ إنهما تسمحان له بتنوع كبير فى أساليب الهجوم والدفاع كما تعينانه على التغلب على البيئة (التأقلم) كأن تقوم اليد مثلا مقام النعل والحافر والقرن والسيف والرمح وغيرها من الأسلحة مجتمعة. هذا لما وهبت من قدرة القبض على كل منها.

غير أن تعاليم (أبقراط) أصيبت بالجمود على مر الزمن، واستقرت فى قضايا صلبة يتناقش الأطباء فى حرفية ألفاظها دون إعارة أدنى اهتمام للتحقق منها، وقد أدى هذا التحول إلى الاكتفاء بمحاولة تفسير النصوص، أما جوهر طريقة (أبقراط)، وهو الملاحظة الحرة الطليقة من كل قيد، والبحث عما يفيد المريض دون الأهتمام بالنظريات، فقد أصبح أمراً ثانوياً لا يبالى الأطباء به. وفى الوقت نفسه حدثت مثل هذه المأساة لفلسفة (سقراط)، حين استحالت إلى جدل عقيم حول نصوص وتأملات ميتافيزيقية، فاضمحلت المدارس الكبيرة وتحولت إلى طوائف صغيرة

الانتقال إلى الاسكندرية : وقد شاهد القرن الرابع ق. م. حوادث قلبت تاريخ

العالم. فعندما دخل الإسكندر المقدونى مصر وآسيا، انتقلت معه الحضارة الإغريقية وسارت فى إثره. وانتشرت فى الشرق وجاورت الحضارات الشرقية وتأثرت بها حتى وصلت إلى الهند، غير أنها تركزت فى مدينة الإسكندرية وكانت قد أنشئت سنة ٣٣٢ ق.م واحتلت مركز التجارة فى البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت ملتقى كل الحضارات. فازدادت ثروة البطالمة بعلم الإغريق وفلسفتهم وفنهم، هذا أن هذه الأسرة المستنيرة استقدمت الفلاسفة والعلماء وتوفرت على مجموعة ضخمة من مؤلفات الإغريق وغيرهم، حصلت عليها بشتى الطرق، وكانوا يدفعون أثمان الكتب وزنها ذهباً ولم يتورعوا عن استعارة كتب ورد نسخ منها، أو عن الاستيلاء على ما يملكه المسافرون من كتب واستبدال غيرها بها.

وإذا بالإسكندرية تفخر بأمثال (أقليدس، وبطليموس) وغيرهما، وبالكشوف التى وصلوا إليها فى ميادين الفلك والرياضة والهندسة والجغرافية، وإذا بالأذهان تتفتح إلى أديان جديدة ومذاهب غريبة حتى تخالطت الواقعية بالصوفية وبالشك الفلسفى وبأغرب الخرافات.

وفى مجال التشريح، بصفة خاصة، وفق السكندريون إلى قلب الأوضاع القديمة عندما رفع (بطليموس سوتير الحظر عن تشريح الجثث البشرية).. وكان أبرز رواد هذه الحركة اثنان من الأيونيين نشأا فى مدرستى (قو وقنيدس) المتنافستين، وهما:

١ - (هيروفيلس) المولود فى كلدونيا من أعمال بيثينيا بآسيا الصغرى، وتلميذ (براكساغور) القوى، أحد (الأسقلبياد الأبقراطيين).

٢ - و (أيرازستراتس)، تلميذ مدرسة (قنيدس)، وعلى حد قول جاء على قلم بلينى - وإن كان مشكوكاً فيه - ابن أخى (أرسطو) أو ابن أخته، غير أن علاقة أخرى كانت تربطه (بأرسطو) من حيث أنه تتلمذ على زوج ابنة هذا الفيلسوف.

واغتنم العالمان فرصة السماح بالتشريح، فمارساه بنشاط حتى أن (سلسوس) الرومانى أتهمهما فيما بعد بتشريح الأحياء، وأن ترتوليان أحد آباء الكنيسة لقب (هيروفيلس) بقصاب يكره البشر لاكتساب المعرفة. ولكن هذه التهمة براهما منها النقاد، ولئن صدقت

التهمة لكان (جالينوس) - بداهة - وهو الذى لم يُكن (لأبرازستراتس) عواطف الصداقة، رماهما بها.

ومع أن شيئاً من إنتاجهما لم يصل إلينا فإننا نعرف عنهما الكثير وذلك من مقطوفات مؤلفاتهم المنقولة فى كتب (جالينوس، وروفس الأفسسى، وسورانس، وديوسقريدس، وبلينى، وبلوتارخ، وسترابو) وغيرهم.

كشف (هيروفيلس) (حوالى ٣٠٠ ق. م) عن أعصاب النخاع وعن منبتها فيه، وميز بين الأعصاب والأوعية والأوردة والشرايين بسمك جدرانها وبرهن على أن الأذينين جزءان من القلب وأطلق اسم الاثنى عشر على جزء الأمعاء المسمى بهذا الاسم، وتعرف على الأوعية اللمفاوية اللبنية، وفطن إلى أنها تنتهى فى أعضاء خاصة بها، ووصف أغشية العين الثلاثة، وقد عنى عناية خاصة بالمخ وبطونه وبالضفيرة المشيمية وبجيوب المخ والمخيخ ، وأطلق على السحايا اسمى الأم الجاف والأم الحنون. ثم أنه ميز بين أعصاب الحس وأعصاب الحركة. هذا ولو أنه خلط بين أعصاب الحركة والأوتار، وأصر على تسمية عصب الإبصار بالمسامية، وهو أول من عد النبض مستعيناً بساعة مائية. وأفاض فى دراسته للنبض أفاضة شملت اختلافات الحجم والسرعة والإيقاع، كما شملت تقسيمه إلى : الكبير والملىء والضيق والسريع والتملى والمنتظم وغير المنتظم والمتقطع والمزدوج والدودى والمتموج، ووصف أوقاته، ووقفاته، وفواصله. على أن هذه الدراسة أثارت (جالينوس) فهاجمه وتحامل عليه.

ولم يكن للروح - فى نظر (هيروفلس) - وجود مستقل ، فالحياة تنظمها قوى أربع :

القوة المفكرة : المركزة فى المخ.

القوة الحاسة : المركزة فى الأعصاب.

القوة الحارة : المركزة فى القلب.

القوة الغذائية : المركزة فى الكبد.

وقد حذق فن التجبير، واشتهر فى الجدل. روى أن السفسطى (ديوروس خرونوس) دعاه لرد عظمة كتفه، وكان (ديوروس) ممن ينكرون حقيقة الحركة، مستندًا إلى حجة منطقية غاية فى التعقيد والسفسطة وهى :

« إذا تحرك جسم فإنما تحرك أما فى الموقع الذى هو فيه، وإما فى موقع ليس هو فيه، ولا يجوز أن يكون فى الموقع الذى هو فيه إذ إنه فى هذه الحال يمكث فيه، كما أنه لا يجوز أن يكون فى موقع ليس هو فيه، إذ كيف يوجد حيث هو ليس بموجود، والنتيجة هى أنه لم يتحرك البتة.

فلما زاره (هيروفيلس) قال له : إذن فإنها لم تنتقل البته. ثم رد الكتف إلى محلها وأقنع (كرونوس) بحقيقة الحركة. وكان - إلى ذلك - خبيرًا بأمراض النساء، فقد وصف أنابيب فالوب، والرحم وأوعيته، والمبيضين وأسماهما الخصيتين ويحكى - فى هذا الصدد - أن ممارسة الطب فى أثينا كانت محظورة على السيدات، وأن النساء، بسبب خجلهن من الرجال، كن لا يحظين بعلاج مستوف وأن هذا الوضع أثار استياء شابة أثينية اسمها (أجنوديس)، فقصت شعرها وتنكرت فى زى الرجال وتتلمذت على (هيروفيليس) فى الإسكندرية، ثم مارست مهنتها بأثينا. وكانت إذا ما أبدت مريضة خجلها منها تكشف لها عن حقيقة جنسها. غير أن أطباء أثينا أخذتهم الغيرة من نجاحها فاتهموها بإغراء مريضاتها ظنًّا منهم أنها رجل. فما كان منها إلا أن كشفت عن جنسها أمام المحكمة ، فبرأتها وإن حرمت عليها الممارسة وأثار هذا الحكم حمية النساء اللاتى أشفقهن وإثارة أدت إلى إلغاء القانون.

ومهما يكن من صحة هذه الرواية الشائقة فهناك ما يشكك فى هوية أستاذها (هيروفليس)، أى فيما أنه (هيروفيلس) هذا الذى نحن فى صدده.

أما (إيرازستراتس) (٣١٠ - ٢٥٠م) وهو من أتباع مدرسة (قنيدوس) المنافسة لمدرسة (قو الأبقراطية) فقد استند، أول مرة فى التاريخ، إلى العلوم التجريبية لتعليل الظواهر الجسدية، منها فيزياء الفراغ وفكرة نفور الطبيعة من الخواء التى اتخذ منها أساس فسيولوجيا جديدة قائلا إن اتساع الصدر فى أثناء الشهيق يجتذب الهواء داخل الصدر، وإن انبساط القلب يجتذب بالمثل الهواء من الرئة. ثم ذهب إلى أن الشرايين تمتلك خاصة انبساط ذاتية تجتذب بموجبها الهواء أو « النفس » من نصف القلب الأيسر، كما أنه علل النزف من الشرايين، لأنها فى رأيه خاوية من الدم، باندفاع الدم من الأوردة إلى الشرايين بدافع الفراغ الناتج فى الشرايين عند خروج الهواء منها، فاستنتج من هذه الظاهرة المزعومة وجود صلات متطرفة بين الأوردة والشرايين.

وقد تطورت على يديه نظرية النفس pneuma التى شغلت مركز (الطب الجالينى). والنفس فى (الموسوعة الأبقراطية) كان له معان متعددة : كان فى وقت معا بخارًا رقيقًا يملأ كل فراغ فى الجسم، وهواءًا مغذيًا، ومجرد غذاء. وكان (إيرازستراتس) أول من[*] بين أن القصبة الهوائية يجرى فيها الهواء لا الغذاء، ولذا أسماها الشريان الخشن، وهو اسمها اليوم بالفرنسية trachée artére، وأضاف أن الفلكة تنثنى فى أثناء البلع لتغلق فتحة القصبة إغلاقا محكما، وهذا على نقيض العقيدة السائدة وقتئذ وفحواها أن هذا الغضروف لا يوقف إلا الأجزاء الصلبة من الغذاء وأن وظيفته تقسيم السوائل بين المعدة والرئة لتوفر للرئة الرطوبة التى تحتاج إليها ولننظر الآن إلى النظرية الجديدة كما رسمها هذا العالم : يدخل النفس إلى القصبة ومن ثم إلى الرئة، ثم ينقله الوريد الرئوى إلى البطين الأيسر حيث يتحول إلى الروح الحيوانى الذى تعتمد عليه كل العمليات الحيوية. ويوزع القلب هذا الروح إلى شتى أجزاء الجسم عن طريق الأورطا وفروعها. والشرايين مليئة بهذا الروح ولا تحوى دما. فى حين أن الأوردة لا تحوى من الروح شيئًا سوى نزر يسير يفد إليها من الشرايين عن طريق اتصالات متطرفة لتتغذى به.

وفى الأنسجة يختلط الروح الوارد إليها من الشرايين بالدم الوارد من الأوردة. ووظيفة الدم تغذية الأنسجة فى حين أن وظيفة الروح تنشيطها. ومن التقاء الاثنين تتولد الحرارة، والطاقة، والحياة.

أما فى المخ فإن الروح الواصل إليه يتحول فى البطون إلى جوهر غاية فى الدقة هو الروح النفسانى، ويسرى هذا الروح من البطون إلى أعصاب الحركة والعضلات لينقل إليها أوامر الإرادة. وقد اختلف (إيرازستراتس) عن (هيروفيلس) حين أكد أن الأعصاب تنشأ من الأم الجافة، وهذا رأى خاطىء، ولكنه له تعليقان يضعانه فى مركز ممتاز بين أعظم الباحثين، إذ إنه ربط بين حدة الذكاء وبين عدد تلافيف الدماغ، كما ربط بين نمو تلافيف المخيخ وبين سرعة حركة الحيوانات كالأرانب والإبل.

أما الروح بمعناه المجرد فتخيل مركزه فى البطن الرابع، حيث يلتق الروح النفسانى بالذبذبة القادمة من المحسوسات الخارجية فيتحقق بهذا الالتقاء الحس. وكان - إلى هذا - أول من اهتم بحالة الأنسجة المرضية، وبحث عن سبب عضوى للأمراض كالتهاب البلّورا والتمور، واكتسب بذلك لقب (فرشو[14] عصره)، فربط بين الاستسقاء

وتصلب الكبد، وعرف أن لكل عضو ثلاثة أنواع من «الأوعية»: الشرايين والأوردة والأعصاب، وكشف عن صمام القلب الثلاثى، غير أنه اعتقد أن وظيفة صمام القلب المترالى هى الحيلولة دون خروج الروح الحيوانى من القلب عن طريق غير الأورطا.

وفى صدد فلسفته الفسيولوجية، يمكن القول بأنه أول من فطن إلى الفكرة التى أسس عليها (جالينوس) طبه فيما بعد وهى أن الطبيعة لا تخلق شيئًا إلا وعينت له وظيفة.

وقد اشتهر فى علاجه للمرضى كما اشتهر فى العلم البحت، ابتكر القسطرة المنحنية، وكان متزنًا فى وصفاته، وهاجم المفرطين فى الفصد والشرب، وكانت له ملاحظات سريرية دقيقة كانت أبرزها إدراكه أن سبب مرض (أنتيوخس) هو حبه (لستراتونيس) زوج أبيه.

وعندما أصيب عن كبر بقرحة فى قدمه شرب سم الشوكران ليضع حدًا لأسقامه.

وإذا قارنا هذين العالمين الذين غيرا ملامح العلوم تغييرًا جذريًا، حق أن نقول إن (هيروفيلس) أعار شكل الأعضاء التشريحى أغلب اهتمامه، على حين اهتم (أبرازستراتس) بوظائفها. وكان الأول - لانتمائه إلى مدرسة (قو الأبقراطية) - مستمسكا بنظرية الأخلاط، فى حين أن الثانى - المنتسب إلى مدرسة (قنيدس) - كان أوسع تخيلا، فعنى بالأنسجة، وأدخل فى الطب أفكارًا جديدة كفكرة الامتلاء أو الاكتظاظ، ونسبة المرض إلى تعفن الفضلات فى الأمعاء، وقوله وإن سبب الحمى والالتهاب، هو أن الدم يضل السبيل فيتسرب إلى الشرايين حيث يعوق النفس ويثنيه عن طريقه، وأن سبب الشلل دخول الأخلاط فى الأعصاب وسد سير الروح فيها.

لم يدم هذا الانفجار العلمى طويلا، فقد أخمده الأطباء الذين ادعوا تبعيتهم لهذين العالمين، واكتفوا بمناقشة نصوص أستاذيهما مناقشة عميقة، ولم يقتدوا بهما فى الاعتماد على الملاحظة المجردة، فإذا بهم ينقسمون إلى فريقين: فريق (الهيروفيلين) وفريق (الأيرازستراتيين)، وظلت المدرستان قائمتين إلى ما بعد القرن الأول الميلادى هذا ولو أن الثانية عمرت أطول من الأولى بقليل.

وقد تدرجت من المدرستين مدارس أخرى، منها الترمتية dogmatist التى تمسكت

بالنصوص واحتمت (بأفلاطون، وأرسطو)، والمدرستين الفلسفيتين (الأبيكور[١٣٩] الرواقية[١٣٨])، ومدرسة أخرى ثار أتباعها على هذه الاتجاهات النظرية فأنشئوا مدرسة على قدر كبير من الأهمية (بين ٢٧٠ و ٢٢٠ ق.م.) وهى المدرسة (التجريبية ampiricist)، التى تجرد أتباعها عن تعاليم الطب الفلسفى وأنكروا إمكان معرفة وظائف الجسم على حقيقتها، بل أنكر البعض منهم فائدة هذه المعرفة، وسمى اتباع هذا المذهب الأخير (الشكوكيين Sceptics)، وأكدوا أن التجربة هى وحدها التى تعلم فن الطب وأن الطب لا شأن له بالمناقشات وإنما ينبغى أن يستمد مادته.

أولاً : من الملاحظة الشخصية.

وثانيًا : من الملاحظات الغير التقليدية.

وثالثًا : من القياس، وسموا تلك المصادر الثلاثة للبحث tripod أى القاعدة ذات الأركان الثلاثة.

ولقد أشاد أتباع هذه المدرسة الجديدة (بأبقراط) قدوة لهم. وأشهر من برز بينهم هو (هير اقليدس) وهو من طارنطا، وكان طبيبا وجراحًا ذائع الصيت، امتاز بإحاطته بالمادة الطبية، شأنه شأن كل أطباء هذه المدرسة، وهو الأمر الذى حدا ببعض الملوك إلى التتلمذ عليهم رغبة فى الوقوف على أسرار العقاقير والسموم إما لا ستعمالها سياسيًّا أو للاحتياط منها. وكان متريدات السادس ملك البنط من بين هؤلاء المتلمذين، وقد زعم أنه وفق فى الكشف عن مادة مضادة للسموم، وكان أول من حاول تحصين الجسم بجرعات متكررة متزايدة من السم، الأمر الذى أدى إلى تسمية الحصانة بطريقته «متريداتزم». إلا أن هذه المدرسة كانت تحمل فى نفسها بذور الانحلال، لأنها حصرت اهتمامها فى العارض الموضعى وأغفلت وحدة الجسم المتكاملة.

وقامت فى النصف الأول من القرن الأول الميلادى مدارس أخرى منها مدرسة (النفثيين) التى نشأت على شكل فرع من المدرسة (التزمتية) وأنكرت حقيقة المادة وآمنت بوجود جوهر أول فريد هو النفث منشأ كل مظاهر الحياة، وقالت إن الصحة التامة تتحقق بكمال حالة الروح أو النفث (pneuma) وبالتوتر (tonus) الذى تنتجه أو تحتفظ به، وإن درجة التوتر تعرف عن طريق النبض، وإن المرض إن هو إلا حالة غير طبيعية فى النفث تنجم عن عدم توازن الأخلاط. وهنا نلاحظ أولا أثر مدرسة (أبقراط).

وندرك ثانيًا علة اهتمام هذه المدرسة بفحص النبض وبالعلاج بالمنهجين الطبيعى والغذائى، وعلى النقيض من هذه المدرسة قامت المدرسة التوفيقية (eclectic) التى حرص اتباعها على عدم التحيز لأى مذهب مفضلين تخير ما يروقهم من كل منها. وكان أبرز أنصارها (جالينوس) الذى سنعرض له فيما بعد، وظهر فى أول القرن الثانى الميلادى (روفوس) المنسوب إلى (أفسس) الذى ندين له بالكثير مما وصلنا عن النبض، وقد ترك (روفوس) مؤلفا فى التشريح قال فيه مثلا إن الكبد الآدمى له خمسة فصوص، وهذا يدل على تشريحة الخنزير، وهو أول من وصف الطاعون والحمرة، وكان يوقف النزف بالضغط والعقاقير القابضة والكى ولوى الشرايين وربطها، وترك مؤلفات فى الغذاء انتفع بها من خلفه ولا سيما العرب.

وظهر فى هذه الحقبة أيضا (أريتاكوس Aretacus)، الذى قيل عنه إنه عاش فى الاسكندرية. وقد فطن إلى حدوث الشلل فى الجهة العكسية إذا كانت علته فى المخ، وفى الجهة نفسها إذا كانت فى النخاع، و (دياسقوريدس) الذى ألف ستة كتب منها خمسة فى العقاقير، والسادس فى السموم.. وهى جميعًا من أهم المراجع فى الموضوعات التى تناولها وأساسًا لدراسة طب الأقدمين وطب العصور الوسطى.